القصص

الهيكل العظمى

للشاعر الفيلسوف رابندرانات طاغور

في الغرفة المجاورة لحجرة نومنا — نحن الأطفال — كان هناك هيكل عظمي معلقاً ، يجلجل في الليل حين يداعب النسيم عظامه ، أما في النهار فقد كنا نحركه بأنفسنا ، وكان يدرس لنا علم العظام طالب بمدرسة طب كامبل ، ذلك لأن مَن حولنا وطدوا العزم على أن يجعلوا منا أساتذة مبرّزين في كل المواد ، ومهما كان نجاحنا فلم نكن لنخبر به أحداً ممن يعرفنا ، كما كنا نخفي ذلك عمن لا يمت إلينا بصلة .

مرت سنون اختفى في أثنائها الهيكل من الحجرة ، كما محيت بقايا علم الأستولوجيا من ذاكرتنا ، ولم تترك وراءها أثرا ، وفي يوم من الأيام كان منزلنا في هرج يموج بالضيوف ، وقدّر لي أن أقضي الليلة في تلك الحجرة القديمة ، وعبثاً كنت أحاول إغراء الكرى ليطرق جفوني ؛ وبينا أنا أتقلب في مضجعي سمعت كل ساعات الليل تدق واحدة إثر أخرى في المعبد المجاور لي ، وبعد عدة دقائق انطفأ المصباح الموضوع في ركن الحجرة ، بعد أن ظل شعاعه الخفّاق يضطرب ، فأسلمني الظلام الى تذكر بعض أحباء فقدناهم ، وتأملت خفوت الشعاع في محيط من الديجور القاتم ، ومن ثم قارنت بينه وبين خروج الروح من أجسامنا البشرية الضئيلة وهالني الشبه العظيم بينهما .

وقد جعلني تداعي الأفكار أفكر في الهيكل العظمي ، وبينا أنا أرسم في خيالي صورة للجسد البشري الذي كان يكسو هاتيك العظام النخرة ، خيّل إليّ أني أسمع وقع أقدام تجوس خلال الحجرة وحول الفراش وتتلمس الجدران ، وأحسست أني أسمع أنفاس المتجول المضطربة ، وكأنما أعياه البحث فمضى يذرع الغرفة جيئة وذهوباً ، وخدعت نفسي بأن ما أسمع ليس إلاّ من قبيل الوهم ، وما صوره لي الا الأرق الطويل ، وتشتت العقل ، ومحاكاة اضطراب أعصابي حاكى لوقع الأقدام ؛ ومع ذلك فقد عرتني قشعريرة سرت في جسدي ، ولكي أتخلص من هذا الوهم هتفت صارخاً : « مَن هنا ؟ » وإذا بالساري يقف حذاء فراشي ويقول : « إنه أنا ، لقد جئت أفتش عن هيكلي الذي بارحته » . فرأيت من الجبن أن أتخاذل أمام مخلوق صوّره وهمي ، وجسّمه خيالي ؛ فأمسكت جيداً بالوسادة وقلت : إنه عمل جميل في هذا الوقت المتأخر من الليل ! ما جدوى هذا الهيكل لك الآن ؟ وإذا بالصوت يصدر من الكلمة نفسها ويقول : يا له من سؤال عجيب ! إن في هذا الهيكل عظاماً كانت سياجاً يقي قلبي الفتي الذي لم يجاوز السادسة والعشرين ، أفلا يحق لي أن أراه مرة أخرى ؟ . فقلت له : « لاشك في ذلك ، إنها رغبة سامية محترمة ، فلتبحث عنه ماشئت ، ودعني أنعم بالكرى قليلا ! »

فقال الصوت : « أظنك هنا منفرداً ، حسن ، إني لأغتنم هذه النهزة لأجلس برهة معك ، نتجاذب فيها الحديث ، وتلك سجيّتي ، فقديماً كنت أجلس إلى الرجال نتحادث ، ولكن في الخمسة والثلاثين عاماً الأخيرة ، أبدلت ذلك بأنيني مع الرياح الداوية عند قبور الأموات ، وهأنذا أتكلم مع فرد من بني البشر لأول مرة منذ مماتي » .

وأحسست أن شخصاً يجلس قرب كلة سريري ، فأذعنت للواقع وأجبت : « إن هذا في الحقيقة لشيء جميل جدا ، وهيا بنا نتكلم في شيء طريف » فقال الصوت : « إن أجمل شيء أتذكره هو تاريخ حياتي ، فدعني أقصه عليك »

وحينذاك دقت الساعة دقتين فانطلق محدثاً وقال :

« عند ما كنت في ميعة العمر في دنياكم ، كنت أخشى شيئاً واحداً كما أخشى الموت ، ألا وهو زوجي ، وكانت احساساتي أشبه باحساسات سمكة علقت بالشص ، إذ كنت أحسبني هذه السمكة ، وقد نزعت من ذلك الهدوء الذي شعرت به في منزل الصبا . لقد مات زوجي عقب زواجي بشهرين ولم يكن حزنهم على وفاته أكثر من حزنهم على حظي التعس ، أما أبوه فقد نظر إلى وجهي ذات يوم وقال لزوجه : ألا ترين في عينها نذير الشؤم ؟

ثم قال الصوت : « أمنصت أنت لقصتى : آمل أن تكون قد أعجبتك ! »

فقلت : « لقد أخذت على جماع مشاعرى وإن مبدأها ليشوق المرء إلى نهايتها . »

« ثم عاد الصوت يقول : دعنى أتمها ، لقد عدْت إلى منزل والدى ، والسرور يملأ نفسى ، واستنكر الناس هذا منى ، ولكنى كنت أعرف جيداً أنى على قسط وفير من الجمال ، ألا ترى ذلك ؟ »

« فقلت : لاشك فى ذلك ، ولكن يجب أن تتذكرى أنى لم أرك أبداً . »

فصاح الصوت : « عجباً لك ! ألم ترنى مطلقاً ! إذن فما هذا الهيكل العظمى ، ها ها ، لا بأس عليك ، لقد كنت أمزح معك وهل فى مقدورى أن أعرفك كيف كان فى هاتين الحفرتين الغائرتين عينان يشع منهما السحر ، وألاّ تشابه بين الشفتين الياقوتيتين اللتين كانتا تفترانعن ابتسامة فتانة وبين تلك الأسنان القاتمة التى تعودت أن تراها ، وإنى كلما حاولت أن أصور لك ما كنت عليه من جمال عبقرى ، وحسن وبهاء ورقة ، ابتسمت طربا كما أشعر بشىء من الحزن والغضب ، وإن أشهر أطباء عصرى لم يكن يخطر على بالهم أن عظامى ستكون يوماً وسيلة لتفهيم دروس الاستولوجى ، أتعرف طبيباً شاباً — كما أعرف — قارن بينى وبين زهرة (الشامباك) وما دار بخلده أن هذا الهيكل المحطم لفتاة كانت هى زهرة الجمال ، وكلما سرت شعرت بأنى قطعة من الماس المتلألىء ألقيت فى جوف الثرى ، وأن كل حركة منى تثير عاصفة من الاعجاب ، وكم أمضيت الساعات الطوال أتأمل هاتين اليدين اللتين تمناهما كثير من الشبان المتيمين ، ولكن هذا الهيكل الجامد ، لايستطيع أن يحرك شعورك نحوى ، ولست أملك وسيلة أدحض بها هذا الافتراء الذى يوحيه إليك هيكلى ، ولذلك أشعر بمقت للرجال ، وهأنذا أطرد الكرى عن مقلتيك بوصفى لك شفتى الورديتين . »

فصحت قائلاً : « أقسم لك بجسدك ، أنك لو كنت محتفظة به حتى الآن لما كان للاستولوجى أثر فى ذاكرتى ، ولكان الذى يملؤها هو صورة الحب القوى العاصف يلوح لى فى غياهب الليل ، ولست أذكر لك أكثر من ذلك . »

فتابع الصوت كلامه قائلاً : « لم تكن لى فتاة شقيقة ، أما أخى الوحيد فقد وطد العزم على ألاّ يتزوج ، وكنت أقضى الوقت منفردة فى الحديقة أتفيأ ظلال الأشجار المتهدلة ، وأسبح فى بحر الخيال . فأتصور العالم كله يعبد جمالى ، وأن النجوم الزهر تسكر من حسن طلعتى ، وأن الرياح تدوى إعجاباً بى ، والعشب المخضر يضطرب ثملاً حين أخطر فوقه ، وكنت أحسب شباب العالم كلهم كالأعشاب التى أطؤها بقدمى ، ولكن قلبى لأمر ما كان ينطوى على شىء من الألم ، وكان لأخى صديق اسمه (شيكار) أتم دراسته بكلية الطب وأصبح طبيب العائلة ، وكنت أرقبه عن كثب من خلال الأستار ، أما أخى فقد كان رجلاً شاذاً اعتزل الناس ، وأوى إلى ركن مظلم ، وإذ كان (شيكار) صديقه الوحيد فقد أبيح لى أن ألقاه ، وكنت إذا مضيت إلى الحديقة مساء ، تخيلت كل عشبها (شيكارا) آخر . أمنصت أنت إلى ؟ فيم تفكر الآن ؟ »

فقلت : « أفكر فيما لو كنت (شيكارا) هذا ! »

فقال الصوت : « تمهل قليلاً ، وأنصت للقصة كاملة ، ففى يوم ممطر ، أصابتنى الحمى ، وجاء الطبيب يعودنى ، وكانت هذه أول مرة ألقاه فيها ، وكنت أتكىء على حافة النافذة حتى تصبغ حمرة الشفق المودع وجنتى ، وحين جاء الطبيب تأمل فى وجهى ملياً فقادته ، وتأملت فى نفسى فخيل إلى أن وجهى وردة حمراء ، قد ألقيت على وسادة بيضاء ، فسأل الطبيب أخى أن يجس النبض ، ولم أر طبيباً أجبن منه ، حتى أن أصابعه كانت تضطرب ولا تستقر حين أقبل يتلمس معصمى ، وفى النهاية سجل حرارة الحمى التى انتابتنى ، أما أنا فقد قدرت خفقان قلبه ، أعندك شك فى ذلك ؟ »

فقلت : « كلا . كلا ، إن خفقات الفؤاد لتحكى قصته ! ! »

فقال الصوت : « بعد أن أبللت من مرضى النهك ، ألفيت كل أحبابى قد رغبوا عنى ، وأخيراً أصبح الطبيب يعود مريضاً فحسب ، وكنت فى هذه الأمسيات أرتدى ثوباً أبيض ، وقد تدلت عليه ضفائر شعرى المحلاة بزهور الياسمين الأبيض ، ومن ثم أتخذ مقعدى المعتاد تحت أفنان الأشجار ومرآتى فى يدى ، وربما تظن أن رؤية الشخص لصورته وجماله فى المرآة تجعله ملولاً . ولكن الواقع غير ذلك ، لأنى لم أكن أرى نفسى بعينى رأسى ، لقد كنت شخصين فى جسد واحد ، فكنت أنظر لنفسى بعين الطبيب ، وشعرت بجنون الحب ، ولكن برغم هذا الدلال الذى أسرفت فيه قد كانت هناك آهة حبيسة تتردد فى صدرى وتئن كما تئن رياح الليل ، ولم أكن فى ذلك الحين وحيدة ، بل كنت حين أسير أتطلع بعين

كثيفة إلى أصابع قدمى وأعجب ماذا تكون حالة الطبيب لو أنه شاهدنى الآن ، أما فى الظهيرة ، حين تتوسط ذكاء كبد السماء ، ولا يسمع صوت هنا أو هناك إلا صيحة حدأة لا تلبث أن تتلاشى ، فقد كان يمر خلف سور حديقتنا بائع الصقور ينادى « صقور زجاجية للبيع » وحينذاك أبسط على العشب خرقة بيضاء أجلس عليها وأعتمد رأسى بكفى ، ويدى الأخرى تعبث بالحشائش ، وكنت أتخيل أن هناك من يرقبنى فى مجلسى هذا ويعجب بى ، ويود لو أنه طبع قبلة على أطراف أصابعى الوردية . . ولكن كيف أتم لك قصتى ، وفى استطاعتى أن أسامرك حتى الصباح ولكن ذلك يبغضها لك . . . . إذن دعنى أظل فى قصتى ، أما الطبيب فحين مارس صناعته جيداً استأجر غرفة فى الدور الأرضى بمنزلنا وجعلها عيادة للمرضى ، وكنت أتسلى بسؤالى إياه عن الأدوية والسموم والمقدار الذى يميت من هذا الدواء أو ذاك ، ولكن هذه الأحاديث أخذت طوراً آخر ، فقد جعلتنى أتأمل فى فكرة الموت ، وكان الحب والموت شاغلى تفكيرى وحياتى

مضى على ذلك ردح من الزمن ، لاحظت فيه على الطبيب تشتت الذاكرة ، وخيل إلى أنه يحتفظ فى صدره بسر يخجل أن يحدثنى عنه ، وفى ذات ليلة جاء مرتدياً كثيراً من الملابس واستعار مركبة أخى ، وهنا ثارت الدهشة فى نفسى ، ومضيت استفسره عن كل شىء ، وبعد أن تجاذبت معه الحديث سألته : ألك أن تخبرنى يا (دادا) عن وجهة الطبيب هذه الليلة وقد استعار مركبتك ؟ . . . . فأجابنى أخى فى صوت أجش « الى الموت » فصحت به « أخبرنى حقيقة أين هو ذاهب » . . فقال فى شىء من الصراحة « مضى ليتزوج » فتعالت ضحكاتى طويلاً وقلت : أحقاً ماتقول ؟

وعرفت حينذاك أن العروس وريثة ثرية ، ستنفح الطبيب مبلغاً كبيراً من المال ، ولكن لماذا كان يخدعنى طيلة الوقت بإخفائه ذلك عنى ، وهل توسلت اليه ألا يتزوج حتى لا يحطم قلبى ؟ ولكن تلك سجية الرجال طبعوا عليها فتصديقهم ضرب من البلاهة ، لقد عرفت فى حياتى كلها رجلاً واحداً ، ولكنه سرعان ما اختفى وتفقدته فلم أجده .

وبعد أن أتم الطبيب عمله وعاد الينا ، وتهيأ للعمل سألته ضاحكة : لقد أحسنت يادكتور ، أعزمت على الزواج هذه الليلة ؟ ولم يفقده سرورى ابتسامة محياه فحسب ، بل أثاره ذلك فسألته : « ولمَ لم توقد الثريات ولم تعزف الموسيقى ؟ »

فأجابنى فى تنهد : « وهل تحسبين فى الزواج سعادة أو لذة ؟ » فانفجرت ضاحكة وقلت : لا ، لا ، لن يكون ذلك ، وهل هناك عرس لم توقد فيه المصابيح ولم تعزف الموسيقى ؟

وظللت أزعج أخى حتى أصدر أمره باحضار جماعة الموسيقى ، وكنت أبتسم طيلة الوقت ، وأتحدث عن العروس وحياتها ، وما سأفعله حين تأتى المنزل . وسألته : خبرنى يادكتور هل ستظل تجس النبض ؟ ثم انفجرت ضاحكة ؛ وتم عقد الزواج فى ساعة متأخرة من الليل ، وقبل ابتدائه كان أخى والطبيب قد جلسا إلى خوان صغير يشربان كأساً من الخمر ، ولما هتك القمر أسداف الظلام ، سألت الطبيب : « أنسيت عرسك وقد حان الوقت ؟ » ومضيت إلى صيدليته ألتمس فيها قليلاً من مسحوق وضعته فى كوبته حين كان مشغولاً عنها ، وإذ ذاك رفعها الى فمه وتجرّعها دفعة واحدة ، ثم صوّب إلى نظرة اخترقت شغاف قلبى وقال : الآن سأذهب الى حيث لا عودة لى أو مآب .

ولما صمتت الموسيقى للراحة ، مضيت إلى غرفتى وارتديت ثياب عرسى الحريرية الموشاة بالذهب ، وأخذت جواهرى كلها ووضعت شارة العرس الحمراء على مفرقى ، ومن ثم هيأت فراشى تحت شجرة فى الحديقة .

وكانت ليلة جميلة ناعمة ، ورياح الشمال الهادئة تقبّل ماتمر عليه فتحمل الطمأنينة الى القلوب ، وقد فاح فى أرجاء الحديقة عطر الياسمين الشذى ، وبينما الموسيقى آخذة فى الهدوء شيئاً فشيئاً ، كان وجه القمر يلتحف حجب السحاب المغبر القاتم ، وبدأت أغيب عن الدنيا رويداً رويداً ، وأفقد شعورى ، وأغلقت عينى مبتسمة ، وتذكرت مجىء الناس ومشاهدتهم إياى هنا ، ولكن وا أسفاه على الملابس الحريرية المذهبة ؛ وحين استيقظت على صوت لغط حولى ، ألفيت ثلاثة شبان يدرسون علم العظام على هيكلى ، فجاشت فى نفسى الآلام ، وأخذت زهرات الشباب تتفتح عن أكمامها ، وإذا بالأستاذ يشير بعصاه الى عظامى مسمياً إياها بأسمائها العلمية ، ولكن أترى أثراً لهذه الابتسامة الأخيرة ، وهل أعجبتك القصة ؟ فقلت يالها من قصة رائعة !

وفى هذه اللحظة رنت أول صيحة وقلت : « أأنت هنا ؟ » فلم يجبنى سوى الصدى ، وحينذاك كانت أشعة الصباح قد نفدت الى الحجرة .

حسن محمد محمود

استدراك

فاتنا أن نذكر أن قصة المغفل المخدوع التى نشرناها فى العدد الماضى ترجمها كاتبها عن الانجليزية